الفصل الثامن

فَضْلُ الأَنْبِيَاءِ وَتَفَاضُلُهُم

فضل الأنبياء على غيرهم

خلق الله الخلق وفاضل بينهم : ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ويَخْتَارُ﴾ « سورة القصص/٦٨ » وقد اختار من أرضه مكة ، فجعلها مقرَّ بيته العتيق الذي من دخله كان آمنا ، وجعل أفئدة الناس تهوى إليه ، وأوجب على الناس الحج إليه من استطاع إليه سبيلا ، وحرّم صيده وقطع شجره ، وجعل الأعمال الصالحة فيه مضاعفة ، وجعل إرادة الظلم فيه مستحقّة العذاب الأليم ، ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ « سورة الحج/٢٥ » واختار من الشهور شهر رمضان ، ومن الليالي ليلة القدر ، ومن الأيام يوم عرفة ، ومن أيام الأسبوع يوم الجمعة ، وفاضل الله بين الملائكة فاختار منهم الملائكة الذين يحملون رسالته إلى رسله وأنبيائه ، واصطفى الله من بني آدم الأنبياء ، فالأنبياء أفضل البشر ، وأفضل الأنبياء الرسل ، ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ « سورة الحج/٧٥ » .

وقد أجمعت الأمّة على تفضيل الأنبياء[1] على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

ويدلُّ على تفضيلهم قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢١/١١ .

وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ « سورة الأنعام/٨٣ - ٨٦ » .

وقد أخبر الرسول ﷺ أنّه « ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر » .

ويؤخذ من الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق ، وأنَّ أفضل رجل بعدهم أبو بكر الصديق .

وقريب من هذا الحديث قول الرسول ﷺ في أبي بكر وعمر « هذان سيدا كهول أهل الجنّة من الأولين والآخرين ، إلّا النبيين والمرسلين » وقد رتب الله عباده السعداء الذين أنعم عليهم أربع مراتب ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ « سورة النساء/٦٩ » .

فأول هذه المراتب وأعلاها الأنبياء ثم الصديقون ثم الشهداء ، ثم الصالحون .

لا مجال للمصادفة

قد يظنّ ظانٌّ أنَّ للمصادفة هنا محلاً ، وأن من الأنبياء من أصابته النبوة وهو لا يستحقها ، معاذ الله ، ولكنَّ الله العليم الحكيم الخبير نظر في معادن العباد وقلوبهم واختار منهم واصطفى الأفضل الأكمل ، وصدق الله إذ يقول : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ « سورة الأنعام/١٢٤ » .

إنَّ حكمة الله وعلمه قاضيان بأن لا تمنح النبوة والرسالة إلّا للمستعدّ لها والقادر على حملها[1]، وإذا تأملت في سيرة أنبياء الله ورسله رأيتهم أبرَّ الناس

---

(١) المهتدون بهدى الكتاب والسنة يرون أنَّ الرسل أفضل الخلق وأكملهم ، وقد اختارهم العليم الخبير كي يكونوا سفراءه إلى خلقه ،وينبغي أن نفرق بين ما جبلهم الله عليه من الفضائل والمزايا ،وبين ما أوحاه إليهم ،فالذي =

قلوبا ، وأعمقهم علما ، وأحضرهم بديهة ، وأشدّهم تحملا ، وأرقهم طباعا ، . . . فلا عجب أن يختارهم الله ليكونوا أمناء وحيه ، والعاملين على اقامة دينه ، فهم القمم السامقة التي تعجز النفوس عن أن تبلغ مداها .

= أوحى إليهم به لم يكن لهم به علم ،وليس لذكائهم وفطنتهم من شيء فيه ،ولذلك قال الله لرسوله :﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ « سورة الشورى/٥٢ » وهذا يردّ على ذلك الصنف من الذين يزعمون أنّهم يعظمون الرسول ﷺ ، ويصفونه بالعبقريّة ، ثمّ ينسبون كلّ شيء إلى عبقريته ، حتى العلوم التي جاء بها ، وهذه خدعة ماكرة ، يريدون من ورائها إنكار الوحي ، ونسبة هذه العلوم الإلهية الربانيّة إلى العبقرية المحمديّة ، ونحن في الردّ عليهم لا نشتط فننكرُ مزايا الرسول وفضله ، ولكننا نبطل باطلهم ، ونثبت الجانب الحقّ فيه ، وهو أنّ محمدا ليس عبقريا فقط ، بل هو مع ذلك رسول ربّ العالمين .

تفضيل الأئمة على الأنبياء

وقد خالفت في هذه المسألة التي أجمعت عليها الأمّة طوائف من الذين ينتسبون إلى الإسلام ، فمن هؤلاء الشيعة الإمامية الإثني عشرية ، يقول عالم من علمائهم البارزين المعاصرين[1] في هذا الموضوع : « إن من ضرورات مذهبنا أنَّ لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبيٌّ مرسل »[2] وقال أيضا « ورد عنهم (أي الأئمة) : إنَّ لنا مع الله حالات ، لا يسعها ملك مقرب ، ولا نبيٌّ مرسل ، ومثل هذه المنزلة موجودة لفاطمة الزهراء »[3] [4].

---

(١) هو الخميني الذي فجرّ الثورة في إيران .

(٢) انظر كتاب الحكومة الإسلامية للخميني ص ٥٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) غلا الخميني في الأئمة غلوا عظيما فقد رفعهم فوق مرتبة البشر ، وعدهم في مرتبة الآلهة ، يقول في كتاب الحكومة الإسلامية ص ٥٢ : « إن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات الكون » ولا أفهم من هذه الخلافة التكوينيّة التي تخضع لها جميع ذرات الكون إلا تلك التي حدثنا الله بها عن نفسه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ « سورة يس/٨٢ » . ويقول في الكتاب السابق أيضا : « والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله » تأمل كيف وصفهم بأنهم كانوا موجودين قبل خلق العالم ، وكان وجودهم نورا ، وكانوا محدقين بالعرش ، وكل ذلك من الغلو الشديد المخالف لصريح الكتاب والسنة .

وبعد اعداد هذا البحث وقبل دفعه الى المطبعة طالعتنا وكالات الأنباء والصحف بكلام للخميني لا يقلُّ خطورة عن الكلام الذي أثبتناه من كتابه ، قاله بمناسبة ميلاد المهدي الغائب الذي تزعم الشيعة اختفاءه منذ أكثر من ألف عام ويزعمون بقاءه حيّا وأنّه سيعود مرة أخرى ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما .

وفي كلامه هذا يزعم أن الأنبياء والرسل جميعا وفيهم محمد ﷺ لم ينجحوا في اصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة وأن الذي سينجح في ذلك هو المهدي المنتظر ، وأنه الشخص الوحيد في العالم الذي سيحقق ذلك . =

قال الألوسي رحمه الله في « مختصر التحفة ص ١٠٠ » مبينا قول الشيعة في هذه المسألة : « أجمع الإمامية على أن الأمير أفضل من غير أولي العزم من الرسل والأنبياء ، وليس بأفضل من خاتم النبيين عليه وعليهم السلام ، وأما غيره من سائر أولي العزم فقد توقف فيه بعضهم كابن المطهر الحلي وغيره ، ويعتقد بعضهم أنه مساوٍ لهم ، وهذا مخالف لما ورد عن الأئمة ، فقد روى الكليني عن هشام الأحول عن زيد بن علي أن الأنبياء أفضل من الأئمة ، وأن من قال غير ذلك فهو ضال ، وروى ابن بابويه عن الصادق ما ينصّ على أن الأنبياء أحبُّ إلى الله من عليٍّ » .

وقد ردّ الألوسي ـ رحمه الله ـ قولهم بنصوص الكتاب وبالمعقول وبتضعيف النصوص التي اعتمدوا عليها لضعف رجالها ، ولكونها معارضة للنصوص الأخرى الموجودة في كتبهم . وهي ردود شافية لمن أراد معرفة الحقّ واتباعه فارجع إليه .

وقد ترددت هذه الأقوال المفضلة للأئمة على الأنبياء في كتب الشيعة كثيرًا ، فقد ذكر علي موسى البهبهاني في كتابه مصباح الهداية في اثبات الولاية[1] « ص

= يقول في كلامه الذي نشرته بنصه صحيفة الرأي العام الكويتيّة بتاريخ (١٩٨٠/٦/٣٠) « الأنبياء جميعا جاؤ وا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم كلّه ، لكنهم لم ينجحوا ، وحتى ان النبيَّ محمدا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء الذي جاء لإصلاح البشريّة وتنفيذ العدالة لم ينجح في ذلك في عهده . . . وأن الشخص الذي سينجح في ذلك ويرسى قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم ويقوم الانحرافات هو المهدي المنتظر » .

لا والله ما ذلك بحق وليس بصدق ، فإنّ أحدا لم ينجح نجاح محمد ﷺ في تحقيق العدالة ، ولن يأتي أحد بعده يحقق ما حققه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . ويؤكد الخميني هذا المعنى فيقول : « لا يوجد في العالم أحد سوى المهدي من أجل تنفيذ العدالة بمعناها الحقيقي . . » ويقول : « إنَّ الامام المهدي عليه السلام سيعمل على نشر العدالة في جميع انحاء العالم وسينجح فيما فشل في تحقيقه الأنبياء والأولياء بسبب العراقيل التي كانت في طريقهم . . . » ومن هنا يرى الخميني أن عيد المهدي هو أكبر أعياد المسلمين « إن عيد المهدي هو أكبر عيد للبشرية بأجمعها » وهذا يعني أنه أعظم من عيد الفطر والأضحى ، وقد فضله على عيد مولد المصطفى ﷺ من جهة : « إن هذا العيد الذي هو عيد كبير بالنسبة للمسلمين يعتبر أكبر من عيد ميلاد النبي عليه السلام من جهة واحدة ، ويقول : « إن عيده هو عيد جميع أبناء البشريّة ، لأنّه سيهدي جميع أبناء البشر » .

وختم كلامه مفضلا إياه على غيره : « إني لا أتمكن من تسميته بالزعيم لأنّه أكبر وأعظم وأرفع من ذلك ، ولا أتمكن من تسميته بالرجل الأوّل لأنه لا يوجد أحد بعده ، وليس له ثان ولذلك لا اتمكن من التعبير عنه بأيِّ كلام سوى المهدي المنتظر الموعود » إننا لا نستغرب مثل هذا الكلام بعد ما قرأناه في كتاب الحكومة الإسلامية . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) هذه النقول أخذناها بمصادرها من كتاب الامامة للدكتور علي أحمد السالوس ص ١٩ .

٦١ ـ ٦٢ » أن الأمامة مرتبة فوق النبوة .

ولذلك فقد حكموا بكفر من أنكر إمامة أئمتهم أو إمامة واحد منهم ، قال ابن بابويه القمي الملقب عندهم بالصدوق :

« اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والأئمة من بعده أنّه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء ، واعتقادنا فيمن أَقَرَّ بأمير المؤمنين وأنكر واحدا من بعده من الأئمة أنّه بمنزلة من أقرَّ بجميع الأنبياء وأنكر نبوّة نبينا محمد » « رسالته في الاعتقادات ص ١٠٣ »

وقال المفيد : « اتفقت الإمامية على أنَّ من أنْكر إمامة أحد من الأئمة ، وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة ، فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار » بحار الأنوار للمجلسي « ٢٣ / ٣٩٠ » والمجلسي ذكر قول المفيد لتأييد رأيه .

ويرى بعضهم أنَّ إنكار الإمامة شر من إنكار النبوة ، يقول العلامة الحلي الملقب عند الجعفرية بالعلامة : « الإمامة لطف عام ، والنبوة لطف خاص ، لإمكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام ، وإنكار اللطف العام شرٌّ من انكار اللطف الخاص » « كتاب الألفين في إمامة أمير المؤمنين للحسن بن يوسف المطهر الحلي ١ / ٣ » ، وعقب أحد علمائهم على هذا بأنّه « نعم ما قال » وأضاف : « وإلى هذا أشار الصدوق بقوله عن منكر الامامة هو شرّ الثلاثة ، فعنه أنه قال : الناصبي شرّ من اليهودي ، قيل : وكيف ذلك يا ابن رسول الله ؟ فقال : إن اليهودي منع لطف النبوة وهو خاص ، والناصبي منع لطف الإمامة وهو عام » « انظر حاشية ص ٤٣ من كتاب النافع يوم الحشر لجمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري » .

خاتم الأولياء وخاتم الأنبياء[1]

وزعم بعض المتصوفة أنَّ الولاية أفضل من النبوة ، وزعم هؤلاء أنَّ خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، ومن هؤلاء الذين زعموا هذا الزعم الباطل الحكيم الترمذي ، وابن عربي القائل بوحدة الوجود ، وهؤلاء كذبوا فيما ذهبوا إليه ، فلم يرد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ أنَّ هناك خاتما للأوليّاء ، ولم يرد أنَّه أفضل من غيره من الأولياء فضلا عن أن يكون خيرهم ، ولم يتكلم في هذه المسألة أحد من الذين لهم باع في العلم ممن يقتدى ويتأسى بهم .

وأصل غلطهم أنَّهم نظروا فوجدوا أنَّ محمدا ـ ﷺ ـ خاتم الرسل ، وأفضل الرسل ، فقالوا : هو أفضلهم لأنّه آخرهم ، وهذا فاسد فالتأخر والتقدم ليس عليه مدار التفضيل ، ولذلك كان إبراهيم متقدما وهو أفضل من موسى ، وإبراهيم وموسى متقدمان وهما أفضل من عيسى ، وصحَّ عن الرسول ـ ﷺ ـ أنَّ أفضل هذه الأمة صحابته الذين كانوا معه ، ولو أنَّ المسلم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه ، وثبت عنه أنه قال : « خير القرون قرني ثمَّ الذين يلونهم ، ثمَّ الذين يلونهم » .

وفي العلوم قد ينبغ المتقدم نبوغا لا يدرك شأوه المتأخر واعتبر في هذا بسيبويه في علم النحو ، وقد يكون هذا في العلوم المترقية التي يكمل المتأخر فيها

---

(١) راجع في هذه المسألة : لوامع الأنوار البهية ٢/ ٣٠٠ ، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ٢٢٢ ، ١١/ ٢٢١ ، ٣٦٣ .

المتقدم صحيحا ، أمّا في النبوة والرسالة فالأمر مختلف ، إذ النبوة وعلومها هبة إلهية ، ومنحة ربانية ، لا تنال بالكسب والمجاهدة ، وقد فتحت هذه المقالة باب شرّ ، فأصبح كلّ من ظنَّ في نفسه خيرا ، وكلّ من أراد بهذه الأمّة شرا يزعم أنّه خاتم الأولياء ، وأنّه يأخذ علومه عن الله من غير واسطة ، وهذا ضلال كبير ، فليس لأحد من هذه الأمة أن يزعم أنّه أفضل من أحد من الأنبياء ، وليس لأحد يزعم الصلاح أن يتعبد الله بطريقة تخالف طريقة الرسول ﷺ .

تفاضل الأنبياء والرسل

أخبرنا الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ أنّه فضّل بعض النبيين على بعض ، كما قال جلّ وعلا : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ، وَآتَيْنَا دَاودَ زَبُوراً﴾ « سورة الإسراء/٥٥ »

وقد أجمعت الأمّة على أنَّ الرسل أفضل من الأنبياء ، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم كما قال تعالى : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَعَ بَعْضَهُمَ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ، وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ « سورة البقرة/ ٢٥٣ » .

أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة : محمد ﷺ ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل ، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنْ الرُّسُلِ﴾ « سورة الأحقاف/٣٥ » ، وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع ، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ « سورة الشورى/١٣ » .

وفي قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ . « سورة الأحزاب/٧ » .

بم يتفاضل الأنبياء والرسل ؟

الذي يتأمل في الآيتين اللتين أخبرتا بتفاضل الأنبياء والرسل يجد أن الله فَضّل مَنْ فَضّل منهم باعطائه خيرا لم يعطه غيره ، أو برفع درجته فوق درجة غيره ، أو باجتهاده في عبادة الله والدعوة إليه ، وقيامه بالأمر الذي وكل إليه .

فداود عليه السلام فضله الله بإعطائه الزبور ، ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ « سورة الإسراء/٥٥ » ، واعطى الله موسى التوراة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ « سورة البقرة/٥٣ » والكتاب هو التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٤ » وأعطى عيسى الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدَىً وَنُورٌ﴾ « سورة المائدة/٤٦ » .

وقد اختص الله آدم بأنّه « أبو البشر ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا له » .

وفضل نوحاً بأنّه « أوّل الرسل إلى أهل الأرض ، وسمّاه الله عبدا شكوراً » .

وفضل إبراهيم باتخاذه خليلا ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ « سورة النساء/١٢٥ » وجعله للناس اماما ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ « سورة البقرة/١٢٤ »

وفضل الله موسى برسالاته وبكلامه ، ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي

---

(١) الأنبياء والرسل يتفاوتون في الفضل كما بينا هنا بتفضيل الله لهم وبما أعطاهم إياه من خير ، وبعض الناس ينسبون إلى الأنبياء والرسل أمورا يظنون انهم يعظمونهم بها فيخرجون عن دائرة الصدق والعدل ، فمن ذلك دعاء كثير من المسلمين للرسول ﷺ قائلين : « يا أوّل خلق الله ، يا نور عرش الله » وهذا القول جمع أنواعا من الضلال ، منها دعاء الرسول ﷺ ونداءه ، وهذا لا ينبغي إلّا لله فهو المدعو دون سواه .

ومنها الادعاء بأن الرسول ﷺ خلق من نور ، وأنه أوّل خلق الله ، وهذا لا برهان عليه إلّا أحاديث باطلة لم يصح إسنادها ، فأوّل ما خلق الله القلم الذي كتب مقادير كلّ شيء ، والرسول ﷺ مخلوق مما خلق منه البشر ، وكونه مخلوقاً مما خلق منه البشر وانه في آخر الخلق لا يضيره ، فالمخلوقات لا تتفاضل باعتبار ما خلقت منه فقط ، فقد يخلق المؤمن من كافر ، والكافر من مؤمن ، كابن نوح منه ، وإبراهيم من آزر ، وآدم خلقه الله من طين ، فلما سوّاه ، ونفخ فيه من روحه ـ أسجد له ملائكته وفضله عليهم بتعليمه أسماء كلّ شيء ، وبخلقه إياه بيده .

﴿وَبِكَلامِي﴾ « سورة الأعراف/١٤٤ » واصطنعه لنفسه ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ « سورة طه/٤١ » .

وفضل عيسى بأنّه رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وكان يكلّم الناس في المهد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ « سورة النساء/١٧١ » .

ويتفاضل الأنبياء من جهة أخرى ، فالنبيّ قد يكون نبيّاً لا غير ، وقد يكون نبيّا ملكا ، وقد يكون عبدا رسولاً ، « فالنبي الذي كُذِّب ، ولم يتبع ، ولم يطع ، هذا نبيٌّ وليس بملك، أمّا الذي صدق، واتبع ، وأطيع ، فإن كان لا يأمر إلّا بما أمره الله به فهو عبد نبي ليس بملك ، وإن كان يأمر بما يريده مباحا له فهو نبي ملك ، كما قال الله لسليمان : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ « سورة ص/٣٩ » .

فالنبيّ الملك هنا قسيم العبد الرسول ، كما قيل للنبيّ ﷺ : « اختر إمّا عبداً رسولا ، وإمّا نبيا ملكا » وحال العبد الرسول أكمل من حال النبيّ الملك ، كما هو حال نبينا محمد ﷺ ، فإنّه كان عبدا رسولا ، مؤيدا مطاعا متبوعا ، وبذلك يكون له مثل أجر من اتبعه ، وينتفع به الخلق ، ويرحموا به ، ويرحم بهم ، ولم يختر ان يكون ملكا ، لئلا ينقص ، لما في ذلك من الاستمتاع بالرياسة والمال ، عن نصيبه في الآخرة .

فالعبد الرسول أفضل عند الله من النبي الملك ، ولهذا كان أمر نوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم أفضل عند الله من داود وسليمان ويوسف »[1] .

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام .

فضل الرسول الخاتم محمد ﷺ

عندما يبعث الله الأوّلين والآخرين في يوم الدين يكون رسولنا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه سيّد ولد آدم ، بيده لواء الحمد ، والأنبياء والمرسلون في ذلك اليوم تحت لوائه ، يقول الرسول ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذٍ آدم فمن سواه إلّا تحت لوائي ، وأنا أوّل شافع ، وأوّل مشفَّع ، ولا فخر » رواه أحمد والترمذي وابن ماجة[1] .

وعندما يشتدُّ الكرب بالنّاس في ذلك اليوم يستشفع النّاس بالرسل العظام ليشفعوا إلى الله ليقضي بين عباده فيتدافعها الرسل ، كلٌّ واحد يقول اذهبوا إلى غيري حتى إذا أتوا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال : « اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر » .

هذا فضله في ذلك اليوم العظيم ، وما ذلك إلّا لما حباه الله به من عظيم الصفات ، وكريم الأخلاق ، والمجاهدة في الله ، والقيام بأمره ، وقد فضله الله في نفسه ودعوته وأمته بفضائل ، فمن ذلك أنّه اتخذه خليلا كما اتخذ الله إبراهيم خليلا ، ففي الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه وأبو عوانة « إنّ الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا »[2] ، وآتاه القرآن العظيم الذي لم يعط أحد من

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٢/٢١)

(٢) تحقيق الطحاوية . انظر شرح الطحاوية ص ١٧٥ .

الأنبياء والرسل مثله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ « سورة الحجر/٨٧ » .

وخصّه الله دون غيره بستٍّ لم يعطها أحد من الأنبياء قبله ، ففي الحديث : « فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلّت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت الى الخلق كافّة ، وختم بي النبيون » رواه مسلم والترمذي[1] .

يخبر الرسول ﷺ بأنَّ الله فضله على غيره بست ، أوتي جوامع الكلم ، وذلك بأن يجمع في القول الوجيز المعاني الكثيرة .

ونصر بالرعب ، وذلك بما يلقيه الله في قلوب أعدائه من الخوف من رسوله وأتباع رسوله ﷺ .

وأحلّت له الغنائم ، وكانت غنائم من قبلنا من الرسل وأتباعهم تجمع ثمَّ تنزل نار من السماء تحرقها .

وجعلت له ولأمّته الأرض مسجدا وطهورا ، فحيثما أدركت رجلا من هذه الأمّة الصلاة فبإمكانه أن يتوضأ فإن لم يجد يتيمم ، ثمّ يصلي في مسجد مقام ، أو في منزل أو في الصحراء .

وأرسل إلى النّاس كافّة عربهم وعجمهم أبيضهم وأصفرهم وأحمرهم[2] ، من كان في وقت بعثته ومن يأتي من بعده حتى تقوم الساعة : ﴿يَأَيُّها النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ « سورة الأعراف/١٥٨ » .

---

(١) صحيح الجامع (٢/٢١) .

(٢) يزعم (نهرو) في كتابه لمحات من تاريخ العالم أنَّ محمدا مرسل إلى العرب خاصّة ، وهذا الزعم قال به طوائف من النصارى في القديم والحديث ، وقد كتب شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه الجواب الصحيح ، في الردّ على شبهات رجل نصراني ، واحدى تلك الشبهات التي أطال شيخ الإسلام في الرد عليها زعم ذلك النصراني أن محمدا مرسل إلى العرب دون سائر الأمم ، ويكفي في الردّ على هذه الفرية أن نبين لهؤلاء تناقضهم ، فإن اقرارهم بكونه نبيّا مرسلا يقتضي تصديقه فيما أخبر ، وقد أخبر ببعثته إلى الناس كافة ، فاذا آمنوا بأنه نبيٌّ مرسل ، ثمَّ كذبوه ، وقالوا : أنت مرسل إلى العرب وحدهم ، فقد تناقضوا تناقضا بينا ، ووضح أنّ مرادهم تبرير كفرهم به .

وأرسله إلى الجنّ كما أرسله إلى الإنس ، وقد رجع وفد الجنّ بعد استماع القرآن ، والإيمان بما نزل من الحق . داعين قومهم إلى الإيمان : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ، وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ « سورة الأحقاف/٣١ ـ ٣٢ » .

والفضيلة السادسة أنّه خاتم الأنبياء فلا نبيّ بعده ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ « سورة الأحزاب/ ٤٠ » .

وإذا كان رسولنا خاتم الأنبياء فهو خاتم المرسلين ، ذلك أنَّ كل نبيّ رسول .

ومعنى كونه خاتم الأنبياء والمرسلين أنّه لا يبعث رسول من بعده يغير شرعه[1] ، ويبطل شيئا من دينه ، أمّا نزول عيسى آخر الزمان فهو حقٌّ وصدق ـ كما أخبر المصطفى ﷺ ـ ولكنه لا ينزل ليحكم بشريعة التوراة والانجيل ، بل يحكم بالقرآن ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويؤذن بالصلاة .

---

(١) ظهر بعد بعثة الرسول ﷺ مجموعة من أدعياء النبوة ، كمسيلمة والأسود العنسي وسجاح ، ولا يزال يظهر بين الفينة والفينة دعي من أمثال هؤلاء ،وقد ظهر في القرن الماضي على محمد الشيرازي (ولد سنة ١٨١٩ م) ولقب بالباب ، وأتباعه يدعون البابية ، وادعى النبوة حينا والألوهية حينا ، وسار على نهجه تلميذه الذي لقب (ببهاء الله) وأتباعه يدعون البهائية ، ومن هؤلاء الأدعياء ميرزا غلام أحمد القادياني ، وله اتباع منتشرون في الهند والمانيا وانكلترا وأمريكيا ، ولهم فيها مساجد يضلون بها المسلمين ، وكانوا يسمون بالقاديانية ، وهم يسمّون اليوم ـ أنفسهم بالأحمدية امعانا في تضليل عباد الله .

وآخر هؤلاء الأدعياء رجل ظهر في السودان يدعى أنّه نبيّ وقد تكفل الله بفضح كل من ادعى هذه الدعوى وهتك ستره . ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ « سورة يونس/٦٩ » .

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء

وردت أحاديث تنهى المسلمين عن تفضيل بعض النبيين على بعض ، فمن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري عن الرسول ﷺ ، قال : « لا تخيروا بين الأنبياء »[1] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوا بين الأنبياء[2] » . أي لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان ، يقال خيّر فلان بين فلان وفلان ، وفضل بينهما ، إذا قال ذلك .

فهذه الأحاديث لا تعارض النصوص القرآنية التي تدلُّ على أنَّ الله فضَّل بعض الأنبياء على بعض، وبعض المرسلين على بعض ، وينبغي أن يحمل النهي الذي ورد في الأحاديث على النهي عن التفضيل إذا كان على وجه الحميّة والعصبيّةوالانتقاص ، أو كان هذا التفضيل يؤدي إلى خصومة أو فتنة[3] ، يدلنا على هذا سبب الحديث ، ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : « استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين ـ في قسم يقسم به ـ فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم عند ذلك يده ، فلطم اليهودي ، فذهب اليهودي عند ذلك إلى النبي ﷺ ، فأخبره الذي كان من أمره وأمر المسلم ، فقال : لا تخيّروني على موسى ، فإنَّ الناس يصعقون ، فأكون

---

(١) متفق عليه مشكاة المصابيح (٣/١١٤)

(٢) أخرجه البخاري مشكاة المصابيح (٣/١١٤)

(٣) راجع شرح الصحاوية ص ١٧٠ .

أوّل من يفيق ، فإذا أنا بموسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ فأفاق قبلي ، أو كان مِمَّن استثنى الله »[1] .

وفي رواية عند البخاري : « لا تفضلوني على الأنبياء » ، وفي رواية « لا تخيروا بين الأنبياء » .

قال ابن حجر في هذه المسألة : « قال العلماء في نهيه عن التفضيل بين الأنبياء : إنَّما نهى عن ذلك من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل ، أو من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول ، أو يؤدي إلى الخصومة والتنازع ، أو المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة »[2] .

ونقل عن بعض أهل العلم أنه قال : « الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنّما هي في مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأنَّ المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأمّا إذا كان التخيير مستندا إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل في النهي »[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى وذكره بعد ، انظر فتح الباري (٤٤١/٦)

(٢) فتح الباري (٤٤٦/٦)

(٣) المصدر السابق ، ولمزيد من البحث راجع تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي عند تفسيرهما الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .